زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

— ملخص ما نشر سابقاً —

مريم ابنة الراعية ساره من الراهب ابلياس البلان هربت من دير الايتام في الناصره لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لامها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فطغاها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفاً فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام ففاجأه عارف وقتله غيرة وهرب .

تابع ما قبله

فقالت الست هند — اسرعي اسرعي وقولي لعارف ان يرجع حالاً لا لزوم للطبيب .

فخرجت لطيفة وهي لا تدري ما تصنع .

وبعد نصف ساعة وصل الى بيت يوسف افندي مبارك ثلاثة من رجال الشحنة فدلتهم الست هند على الجثة وفتحت لهم الغرفة المحبوسة فيها مريم

. . .

﴿ الفصل السادس ﴾

من ارهب مشاهد الدنيا واكملها في الساميات والسافلات معاً مشهد في بلادنا تتناهى عنده اغرب الصفات الطبيعية والسماوية والبشرية · مشهد منقطع النظير منحصر في بقعة من الارض صغيرة يجمع بين مـا تدانى من اطرافها أكبر المتناقضات في مظاهر الوجود ، من اغوار وانجاد ، ومن نيران تشتعل تحت الينابيع ، وثلوج تذوب فوق الجبال ، ومن مجد قدسه التاريخ وقداسة دنسها الانسا ، ومن الهيات في انوار الطبيعة تتهادى ومعرات تعتس في ظلمات البشر · الا فان هناك درجات للنشوء والانحطاط في الطبيعة وفي النفس ، اولها مثل آخرها بادٍ للعيان · بل هناك هيكل أشعلت فيه مشاعل الحقائق الروحية وصفرت فيه رياح الاضاليل · سُمعت فيه كلمات الله ، وسُمعت فيه قهقهة ابليس · فتجسدت الاولى في الطلول والاثار · واستحالت الثانية مدناً واديانا وحكومات ·

الا في سبيل الله جمالك ، ايتها البحيرة الزرقاء العين ، الذهبية الجبين ، الفضية الجوانب ، الباسطة اذيالها تحت رجل طبرية الموحلة السوداء ، المستظلة في ظلال الجبال الخضراء والبيضاء ، الكامنة في قلبها البراكين ، الزاهرة على ضفاتها الدفلى والفل والخزام ، الشاخ صراليها « الهرمل » وقد اعتم بالثلج وتسربل بالغيوم ، المدفون حولها المجد والصلاح ، وقد حجب الشوك ضريحهما وحتى فوقهما الشوكران · عروس الاردن هي تأخذ منه وتعطيه ، فتستحيل الشريعة فيها حباً ، والناموس جمالاً · فيها يبتدىء سلم الطبيعة وسلم النفس ،

وفوقها درجات لتاريخ الارض تقارن درجات في تاريخ الانسان ، فدرجات في اغوار الحياة وحياة الاحزان ، اكثرها حزناً وابعدها سراً تلك التي وقف عليها برهة اطهر البشر نفساً واقدسهم كلمة . ثم ولى كما ولت آلهة الزمان فنصب من ذكراه القدوس خيال يحجبه عن آل عثمان ؛ مجد الرومان . وان زهرة الشقيق التي كونت من دمه لتقف نائحة كل ربيع بين دخان الوثنية وشرر الاسلام .

ومن ابعد الرموز الطبيعية معنى واحبها صوتاً تلك الينابيع الحامية التي تذوب فيها احقاد الارض ملحاً وكبريتاً فتحملها المياه مرقرقة مسرعة الى البحيرة الحلوة القم المثلجة الفؤاد . وهذه في اعماق الارض حقيقة الحياة الرائعة . تغلي الضغائن في صدور الناس ملحاً وكبريتاً فتلقى في قلب البحيرة بحيرة الابدية بل بحيرة المسيحية صفاء وعذوبة وبرداً وسلاماً

وان البحيرة التي كتب على مائها اغرب ما في التاريخ — تاريخ الطبيعة وتاريخ الانسان — من الامال والاحلام ، وأعلنت حولها اقدس الانباء السماوية والبشرية لم تزل تجتذب اليها من كل حدب وصوب جماهير الناس من مرضى النفوس والابدان . فتريهم أعجوبة الله في سمائها واعجوبة الطبيعة في ارضها . يجيئها الحجاج فيغتسلون بمائها المقدس تطهيراً للنفس ويوءمها أولو الاسقام تخفيفاً لآلامهم واستشفاء منها . كبريت في تلك المياه يشفي الابدان وحلاوة فيها تشفي النفوس . وهذه من اعاجيب بحيرة الجليل وينابيعها .

ولكن المقيمين في جوارها لا ينالهم من بركاتها مثقال ذرة . ذلك لانهم يعبدون خيالاً ولا يعرفون جمالاً . وانشقاء هم فيه — شقاء لا مثيل له في العالم — لا في الجهة الجنوبية بلندن او بنيويورك ولا بغيرهما — شقاء يفترش الاقذار ويلتحف الخمول ويشكر الله — ان مثل ذا الشقاء ليبعث الى الكفر بالله . يهود طبريا اتفسد حالتهم اسمى الحقائق الروحية التي أنزلت في تلك الارض ارضهم ؟ أيقيمون عند ينابيع العجائب ويحرمون بركاتها ؟ أمرضى النفوس والعقول والابدان وفي مهد الشرائع الموسوية والمسيحية ؟ عَلَى ان صاحب البيت ادرى بالذي فيه . ولعلهم ادركوا الحقيقة التي قلما يدركها من زار تلك الديار فسخروا من بني الايمان وذوي الاسقام اللاجئين اليها . وهؤلاء بالنسبة الى الحجاج قليلون ، ولا غروَ ، فالاستحمام في المياه المقدسة يعظم فضله بالمشقات . واذا قضى المستحم نحبه فيها فهناك النعيم الاكبر . اما الحمامات المعدنية حمامات طبرية ففضلها لو علم الناس اعم لان مشقتها أكبر واشد . ولا عجب اذا أجهز عَلَى المريض فيها ولا بأس . فان في الاجهاز تمام الشقاء . فهنيئاً لمن يؤمها ! وهنيئاً لمن يموت فيها ! ان الصابر عَلَى حمام أكبريتي حام لكالصابر عَلَى ما في الحياة من النار والكبريت ، والصبر بابه الجنة . عَلَى ان السكينة هنالك ، والبعد عن الناس ، وجمال الطبيعة ولطف الهواء لتحولُ نوعاً دون الاستشهاد . فتفعل بالنفس وبالتالي بالالام الجسدية ما لا تفعله المياه .

قلنا البعد عن الناس وقد يُستغرب ذلك ، لان الحمامات المعدنية في

اوروبا اصبحت اليوم مشرعة الاصحآء ومحجة الاغنيآء والادعيآء فيجتمعون هناك كما يجتمعون في حلقة السباق سباق الخيل او في الاوبرا او في القهاوي ليعرضوا نعيماً هم فيه · او ليبحثوا عن نعيم لا حجّاب في بابه ولا حرج على اصحابه · فيعجبون بعضهم ببعض ، ويفاخرون ويزعجون بعضهم بعضاً · اما في طبرية فلا يجد الزائر حتى في ابان الموسم · نعيماً واحداً معروضاً اذا استثنينا نعيم الاستشهاد · ليس هناك من يزعج النفس او من يقلق البالَ · فالمستحمون والعمال اذا اضفنا اليهم صاحب القهوة والامرأة الوحيدة التي تتردد اليها لا يتجاوزون الخمسين عداً ·

والضجر في الحمامات المعدنية من انجع الادوية للمصابين بالروماتزم — عفواً ايها الاستاذ —للمصابين بالدحار · فان له رد فعل مدهشاً · الضجر « حرّاقة » روحية اذا استعملها المريض عشرين يوماً يرى العجب · ولكنها لا تفيد بعد ذلك الا اذا كُررت في حمام آخر · وكل ما يصرف النفس عنها يضعف مفعولها · فمن يرغب بالاركيلة مثلاً ويرتاح الى حديث القهوة — وفي حمام طبريا قهوة واحدة كما قلنا وامرأة واحدة تتردد اليها — فلا يضجر تمام الضجر ولا يشفى تمام الشفآء ·

. . .

— وهذا القسيس يا محمود من اغرب الناس · يعطيني كل يوم بشلكاً لاجدد له الماء في الحوض صباح مساء · فما قولك ·

— بخيلٌ · ولكنه اكرم من اخوانه ·

— وماذا تظنني افعل ؟ ادخل الى الحمام فاقفل الباب وادخن سيكارتي واغني « يا رائحة عالشام خذيني معاكِ » ثم ادعوه — تفضل يا محترم

— وهل هذا حلالٌ يا احمد ·

— حلال ! ؟ المياه الكبريتية تطهر كل شيء · وهل هو افضل من سواه · هذا الحوض العمومي يستحم فيه خمسون نفساً من اصحاب السوالف في وقت واحد ولا تجدد مياهه الا مرة واحدة في الاسبوع · وقد سمعت الحكيم يقولُ ان المياه المعدنية اذا استحمَّ بها عدد من الناس تزداد المعادن فيها وتكثر منافعها · صلِ عَلَى النبي · ويظهر ان اليهود يفهمون ذلك · فما مرة سألني يهودي ان اغير له المآء — اركيله يا طنوس — ولكن القسيس ابن حرام ! فقد احس بالطبخة · فنزل البارح ووقف في الحمام امامي فنزعت ثيابي والله وغطست فصاح بي — يا بليد يا حمار (الابعد) هات « خيط مصيص » فجئته به فربط السداد بالخيط وربط الخيط بوتد دقه الى حافة الحوض · فصحت وانا متظاهر بالجهل ومعجب بشطارته — والله يا محترم نحن اغبياء ما عندنا فكر · وصرت كل يوم اجدد لك المياه ابي ساعة شئت ولا اسلق حالي كل مرة واعرض نفسي بعدئذٍ للشمالي ابي الموت

— اذاً القسيس نفعك ·

— نفعني ؟ وانت ابسط منه · من يدفع بشلكاً لاجدد له المياه حين يرى ان ذلك لا يكلفني غير سحب الخيط ؟ وهذا الابن الحرام قطع عني البشلك بعد هذه العملية · نزلَ هو بنفسه البارح ورفع السداد ونزلت انا

صباح اليوم وقطعت المحيط · ما شاءالله أيغلبني قسيس افندي ؟

— ومن اين هذا القسيس ؟

— لا اعلم والله · فهو قلما يكلم احداً · ولا احد يعرف اسمه — أعطنا قدحين عرق يا طنوس واكثر من المازا

— وغير هذه الاركيلة · زبوني « ابوالسلة » يا محمود احسن من زبونك · فقد سافر معي البارح الى تلحوم · وفلق رأسي بالسوءالات · ولكنه يخوف والله · حكيت له حكايات تطقطق الحواصر فما ضحك وما ابتسم مرة والله · وقد حرت في امره اراه لابساً لبس البدو ولهجته لهجة نصراني من بلادنا · بالك ها هو ·

ومرّ اذ ذاك رجل في زي الاعراب طويل القامة نحيلها اشقر اللحية قطوب الوجه يلبس عباءة سوداء بسيطة وكوفية من لونها شدت عَلَى رأسه حتى عينيه بعقال من الشعر

— يروح الى البلد ماشياً وما هو بخيل والله · اعطاني ثلاث مجيديات البارح أجرة السفرة والسواح الافرنج يلعن جدودهم لايدفعون ثلاث مجيديات الى تلحوم · واظنه يمشي الى البلد كي لا يخالط الناس في العربة فهو ايضاً قلما يكلم احداً

— محظيون السنة بالخرس · اهلاً بهيلانة

ودخلت اذ ذاك القهوة فتاة تلاوص وتتثنج وهي قصيرة القد غليظة الجوانب وسيمة الوجه مخضبة مكحلة مبهرجة فبادرها احمد بالكلام قائلاً ·

يا بنت الحرام اين كنتِ الليلة البارحة · هذه النطنطة لا تعجبنا ابداً · فاما ان تقيمي في المدينة واما عندنا في الحمامات

— اسمعوا اخبركم ما جرى· كنت راجعة الى هنا مساء البارح فاستوقفني في الطريق احد البوليس وقال — ما قولك بليلة نقضيها انا واياكِ في السجن· امشي · امشي · فترددت فهمس في اذني كلمات دغدغت قلبي · فسرت واياه · وهو مثل القمر · وليس مثلك يخوف القرود · ولما وصلنا الى دائرة البوليس حبسني في غرفة هناك ووعدني ان يرجع اليّ بعد ساعتين · عشقته والله · وأخذت اعلل النفس بقرب الاجتماع · فجاء بعد ساعتين يقول : اتبعيني · فمشيت طائعة فادخلني داراً ثم اخرجني منه ثم فتح باباً في بيت قريب من الدائرة وقال ادخلي فدخلت فاقفل الباب وتركني وحدي فاذا انا بغرفة مفروشة بالسجاد وفيها سرير له قبة حمراء ومائدة ممدودة عليها الدجاج المحمر والارز المفلفل والمحاشي والسمك · وعرق من احسن ما شربت في حياتي ونقل فاخر · فقلت في نفسي · الله كريم · ليلة حظ هذه · وقلبي مشغول بالشاب وعيني مشغولة بالمائدة · ولبثت انتظره واغني « يا عيني انا الصابر عَلَى نار» واذا بالباب انفتح ووقف فيه شخص وجهه مثل الصاج المقدح ورأسه كرأس الثور وعيناه كعيني السعدان · فسقط قلبي من الخوف وذاب الكحل في عيني من الكمد · كلمني الغزال وسلمني الى الدب

— يا بنت الحرام كنت عند مدير البوليس

— يلعن سحته ما اعطاني ولا باره

— تستأهلي اكثر من هذا · مليخ · سامحناك · هات عرق لميلانه يا طنوس · سألني عنك القسيس الليلة البارحة

— بالله ؟— ماية قسيس ولا مدير البوليس

— ولكن القسيس هذا يريد ان تسافري معه · وحياة النبي · سألني البارح قائلاً — يا ابني ومن هذه الفتاة التي تظل عندكم في القهوة فقلت— والله يا محترم هي الدجاجة الوحيدة بيننا اتحسدنا عليها · فزجرني ابن الحرام وقال انه سيكتب الى القائمقام لينفيك من هنا

— يلعن لحيته هو والقائمقام ومدير البوليس مثل رجلي · وهل رأيت « ابو السلة » صبحته فما رد عليّ · وغمزته فلم يلتفت اليّ · « ابو السلة » ! حلو · مثل القمر والله · وتنهدت هيلانة ثم قالت —

الله ابتلاني بكم · سليلة القرود · ثم تنهدت ثم قالت كأنها تخاطب نفسها — اصطادني الغزال وسلمني الى الدب · وهذه عيشتنا · يفرجنا ربنا علبة البقلاوه ويعطينا · يا طنوس ! قنينة العرق ·

﴿الفصل السابع﴾

في فصل الشتاء من تلك السنة · بعد ان أصيب بيت مبارك بتلك الفاجعة التي ألبستهم الحداد والعار جاء قسيس الى طبريا ليستحم بمياهها المعدنية · فاستأجر غرفة فوق الحمامات فريدة في بابها · ارضها كخريطة لبنان البارزة · وسقفها كالجو المرصع بالغيوم · وجدرانها كجذوع الصنوبر مرشقية · وقد زينها العنكبوت بكرناش من الحرير · ونقشت الجرذان في زواياها المحاريب وبنت السنونو أوكارها فوق الشبابيك · فاقام القسيس فيها ورفاقه هؤلاء الاطهار معتزلاً الناس · الا انه كان يذهب الى طبريا باكراً ليقدس في احدى كنائسها ويعود الى بيته الكثير السكان فيقضي معظم وقته بالمطالعة والكتابة والصلاة · مناجياً السنونو والعنكبوت والجرذان · وفي ذات يوم هب الهواء ناقماً عليه فبعثر اوراقه وخطف واحدة من بنات افكاره فوقعت في الطريق فعثر «الاعرابي» بها وهو سائر الى طبريا وقرأ فيها ما يلي —

« وبعد ان جلس المعلم عَلَى كرسيه امام تلاميذه سألهم قائلاً — ما هي الحياة ؟

وقال السنونو — الحياة فراش من القش يتخاصم فيه الذكر والانثى

فقالت الرتيلاء — الحياة كفن من الحرير أحوكه لنفسي

فيكسران بيضات العش ·

وقال الجرذون — الحياة بضعة لحم متتنة · وفخ مخلع · وقط جائع

فقال المعلم في نفسه · وكذلك في الناس · كل ينظر الى الحياة من بيته · من عشه · من جحره · فيبني رأيه على تجاربه الصغيرة المحدودة · نتيجة ذلك الفوضى · اما الحقيقة فهي في جانب من ينظر الى الحياة من السماء من فوق الارض وسائر الاكوان · فالدين اذاً منزلاً كان ام لا هو احسن في الاقل من فلسفة العنكبوت والجرذان »

ثم قرأ على الجهة التالية من هذه الورقة ما يلي —

« كلما فكرت بالماضي ماضي حياتي ينقبض قلبي · اجمل الاسرار الدينية كلها وانفعها سر الاعتراف · فهو مرهم لجروح النفس — لولاك يا ربي لمن يعترف المجرم الاثيم »

فطوى الرجل الورقة ووضعها في جيبه وسار في طريقه الى البلد يفكر بما حوته من الحكمة · ومن الصدف ان هذا الرجل جاء تلك الناحية لما كان القسيس هناك ولكنه لم يقم عند الحمامات · ولم يكن قصده الاستحمام · فعلى شاطىء البحيرة بين طبريا وسمخ بيوت حقيرة شبه اكواخ منفرد بعضها عن بعض يستطيع المرء ان يقيم في احدها بعيداً عن الناس وقريباً من البلد · وهذا الغريب استأجر كوخاً في سفح الجبل الى الجهة الجنوبية من قبور هناك لبعض علماء التلمود بين الحمامات وسن النبرا · وكان المقيمون في الحمامات والعمال يراقبونه ويرجمون بالغيب في امره · ومن طبع الناس انهم لا يستطيعون ان يجاوروا سراً دون ان يمنحوه اسماً ويحيكوا له من عنكبوت ظنونهم ثوباً وقصداً · فلقبوا الرجل « بابي السلة » لانه لم يُرَ

مرة ماراً بلاها وقالوا — جآء لا شك يتجسس للعربان · ولكن محمود البحري رآه يكلم امرأة في تلحوم عرفته وسلكت قدامه مسالك الخادمة قدام سيدها ·

وفي ذات يوم عاصف ماطر بينا كان القسيس واقفاً عند شباك غرفته يراقب هياج البحيرة أبصر الغريب ماراً في الطريق فدهش دهشة عظيمة واستدعى احمد من ساعته

— أتعرف ذاك الرجل يا احمد

— «ابو السلة» لا يا محترم · هو غريب جآء هذه الناحية منذ اسبوع

— واين يقيم ؟

— لا ادري والله · الا انه يجيء من هذه الجهة — جهة سمخ فيذهب الى البلد ·

— وهو ذاهب الى البلد الان ؟

— نعم · اظن ذلك ·

— راقبه عندما يرجع خفياً · واتبعه واهتدِ الى منزله · خفياً أفهمت ؟ وتعال اخبرني · واعطاه بشلكاً · فاخذه احمد وهو يقول — امرك يا محترم · محسوبك يا محترم ·

اما الغريب فركب ذاك اليوم العربة التي تسير بين طبريا والحمامات ظناً منه انها تقيه في الاقل الاوحال · ولكن عربة السلطان لا تخفف مثل ذا الظن في تلك الطريق وفي مثل ذاك اليوم · فكيف بعربة مخلعة متهدمة ·

سجوفها ممزقة · واجزاؤها ملزقة · سقفها كالغربال وعريشها مربط بالحبال · يجرها ثلاثة من الكدش الجائعة الناحلة المنهوكة · وتقل طابوراً من يهود طبرية · وقنطاراً من الامتعة · وان من يشاهدها عن بعد في مثل ذاك اليوم تسقط · وتعلو · وتكر · وتفر · فتلعب الرياح بخانها الممزق · وترشقها الطريق باوحالها فتختفي تارة في الماء دواليبها · وتارة تغزل في الهواء · يظنها قارباً في البحيرة تتقاذفه امواجها الهائجة · ومن سوء الاتفاق لتتم في تلك الساعة ضربات اسرائيل على الغريب كانت الفتاة هيلانة من المسافرين جالسة قباله · فجعلت تغازله برجليها · وترشقه باوحال عينيها فتنشدح عليه اذا غارت العربة · واذا انجدت يهوي عليها · فتجلع فاها مكركرة وهو ساكت صابر وتصيح صيحات يردد صداها اليهود هاذرين هاذين

— روّضيه يا هيلانه !

— فارت الطنجرة يا هيلانه !

— ارفعي الغطاء · ارفعيه !

— انزلي الستارة يا هيلانه !

— « رايح فين يا مسليني يا بدر حبك كاويني » .

— سدي الطاقه سديها !

— سدوا « طيقانكم » يقطع الله اعماركم ! حبيبي حلو ومحتشم .. اه حبيبي ؟

فنظر اليها الغريب بعين روءوقة وخاطبها بلطف قائلاً — وهل الحشمة

تضرك يا بنتي ؟

— الحشمة ؟ موءكد ! تقتلني . اذا انا احتشمت اموت من الجوع — وتموت — وسكتت عند هذا منكسة رأسها

— اذا انتِ احتشمت تحيين حياة سعيدة . تنجين من الاجلاف الاشرار وتكتسبين محبة الافاضل من الناس .

— الافاضل ؟ اين هم الافاضل ؟ في طبريا ؟ اها ها ها ها ! ما رأيت في حياتي كلها رجلاً فاضلاً . ابي قوّاد الله يبليه ! واخي ديوث الله يعميه ! وكل الرجال مثل ابي واخي

فتجهمها الغريب قائلاً — احتشمي يا بنتي تأدبي قد يكون بيننا الان رجل فاضل

فسكتت هيلانه واطرقت مفكرة . ثم سألها الغريب — وهل امك في قيد الحياة ؟

— لا تسألني عن امي . امي !

وشرقت الفتاة بريقها واغرورقت عيناها .

ولما وصلت العربة الى الساحة خارج البلد دفع كل من الركاب نصف بشلك الى الحوذي ودفع الغريب عنه وعن الفتاة . واجتازوا تلك الساحة بل تلك البركة غائصين في اوحالها ومياهها حتى الركاب — وسار الغريب تتبعه هيلانة . وما كادا يدخلان البلد حتى ابصرها البوليس فاعترضها في سبيلها قائلاً .

— الى الحبس · الى الحبس ·

فصاحت مستجيرة بالغريب — لا اروح · لا اروح · فتش عن غيري ما اكثر الغاويات في البلد · فتش عن غيري عرفت حيلتكم · دخيلك يا سيدي خلصني من البوليس · جئت ازور امي · امي مريضة · دخيلك خلصني منه ·

فخاطب الغريب البوليس ونفحه ببعض المال وقال للبنت — امشي يا بنتي · روحي في سبيلك

— كثّر الله خيرك · الله يطيل بعمرك · انت اول رجل فاضل عرفته

ثم شخصت اليه هنيهة واخذت بطرف عباءته قائلة — تعالَ معي · تعالَ معي · البيت قريب ·

فسار الغريب واياها يجتازان في اسواق المدينة بل في سواقيها حتى وصلا الى زاروب معتم مسقوف يطفح بروائح يغمى عَلَى الثيران منها ليس فيه غير ابواب مظلمة يكاد بعضها يلتصق ببعض فدخلت الفتاة احد هذه الابواب المفتوحة ودخل الغريب فاذا هما في ساحة موحلة يلعب فيها اولاد عراة تحت الشتاء محاطة بغرف صغيرة عَلَى شكل صحن الدار في احد الاديرة · فوقفت الفتاة قدام باب تقول للغريب — تفضل

فوقف الرجل متردداً ·

— تفضل اعرفك بامي ·

فدخل واذا هو في كوخ مظلم وفي احدى زواياه امرأة مريضة نائمة

عَلَى الارض والى جنبها طفل يبكي · فجلست في فراشها وجعلت ترضعه

— هذا كل ما كسبت البارح — واعطت امها بشلكين

— امك نفساء

— امي مريضة بالحمى ولدت منذ اربعة اشهر ولم تزل في الفراش

— واين ابوك

— ابي قواد الله يبليه · تركنا منذ سنتين ·

— وامك ؟ والطفل ؟ فلم تجب الفتاة بل خاطبت امها قائلة

— يا امي هذا الغريب احسن الي وهو اول رجل فاضل عرفته

— وجآء يتفرج عَلَى بليتنا كثر الله خيره رُح في سبيل يا عم — رح في سبيلك ·

فخرج الغريب من البيت واومأ الى هيلانه ان تتبعه · فاعطاها في الخارج بعض المال لتبتاع لامها شيئاً من القوت · والثياب · ثم قال لها — أتعرفين مدرسة اليهود عند الحمامات ؟ والقبور هناك ؟ في تلك الجهة فوق الطريق بيت منفرد ليس هنالك غيره · تعالي بعد غد فاكون هناك لي غرض معك · نهارك سعيد ·

— امرك يا سيدي · الله يريك الخير · الله يطيل بعمرك · وراحت الى امها تصفق بيديها وتقول — ليرة يا امي ليرة · صدقيني · صدقيني · انظري بعينك ·

وبسطت كفها امام امها في ذاك الكوخ المظلم فشع فيه قطعة من الذهب ·

فانقطع سليب الام من الدهشة وجعل طفلها يبكي .

— « حليقة» جيراننا كلهم لا تبلغ ليرة . يا امي اي شيء اشتري لك ؟ اشتري لك لحافاً قبل كل شيء واشتري فسطاناً للصغير . وفسطاناً لك ايضاً . امي لا تبكي دخيلك . غداً تشفين . وهذا الغريب ارسله الله . هذا الغريب من السماء جاء يفتقد الفقراء البؤساء مثلنا .

— روحي الى السوق واشتري لي فخذ دجاج وقالب جبن ورغيف خبز

فسارعت هيلانه الى السوق . فابصرت الغريب واقفاً امام دكان يحدث صاحبه .

— هل عندك غير هذه الدجاجة ؟

— مذبوحة اليوم وحياة الله ! اقطع لك فخذاً ؟

فلم يدرك الغريب معناه . فقال — وهل تبيعون الدجاجة بالدرهم ؟

فقالت هيلانة وقد وقفت الى جانبه

— ومن يقدر ان يشتري دجاجة كاملة عندنا ؟

— اتريد دجاجة كاملة — يا حايم يا حايم رح الى البيت وقل لامك تذبح دجاجة حالاً وهاتها .

فقال الغريب — بل دجاجتين .

ولو علم الغريب ان في باريس ايضاً تباع الدجاجة اقساماً فخذاً فخذاً وجانحاً لزال عجبه .

ثم وقفت عند ذاك الدكان فتاة صبية تحمل طفلاً فقالت — اعطني

قوائص الدجاجة ·

فوزن لها صاحب الدكان القوائص واخذ من الاقذار المتراكمة عند الباب جريدة فلفها فيها وتناول منها متليكين ·

ثم وقفت الفتاة امام رجل جالس في الوحل عَلَى حافة قناة الماء وامامه عَلَى الارض بقطينة قسمها عدة اقسام فابتاعت قطعتين منها واعطته متليكاً واحداً وراحت في سبيلها ·

فقال صاحب الدكان للغريب—هذا يوم عيد عندها فقد قبضت «الحليقة»

— « الحليقة » ? وما هي « الحليقة »

— يا سيدي · اكثر يهود هذه البلد يعيشون عَلَى الحسنات التي تجيئهم من اخوانهم في اوربا وكل بيت يقبض من الحاخام او القنصل قيمة معلومة كل شهر · هذه هي « الحليقة »

ووقفت عندئذٍ امرأة اخرى تحمل طفلاً ويتبعها صبيان فابتاعت فخذي الدجاجة ثم ثلاث قطع من البقطينة وراحت في سبيلها والولدان يركضان في قناة الاقذار ويصفقان جذلاً

— اولادها كلهم ·

— نعم وقد يكون عندها غيرهم في البيت ·

— ولكنها صبية ·

— صحيح هذا · بناتنا يتزوجن صغيرات وقبل ان يبلغن العشرين يبلغ عدد اولادهن — واشار الرجل بيده كلها

— خمسة —

— وستة احياناً ·

وكان قد عاد الولد اذ ذاك يحمل الدجاجتين فاعطى الغريب هيلانة واحدة منهما ووضع الثانية في سلته

وسار الى سوق الخضر يقول لها اتبعيني · فابتاع هناك شيئاً من الكوسى والبندورة والبصل والثمار واملأ لهيلانة سلة منها وودعها قائلاً — سلمي على امك · وتعالي بعد غد الى البيت الذي دللتك عليه وبينا هو عائد في طريقه منقبض النفس كسير القلب مما شاهد مرّ قرب الشاطىء حيث تصب بواليع البلد في البحيرة فرأى هناك النساء يغسلن جرارهن من تلك المياه وقد مازجتها اقذار البواليع ·

فمال بوجهه قرفاً وحزناً وسار في طريقه

فاتفق له ان مرّ ببيت الامرأة التي ابتاعت فخذي الدجاجة وكانت واقفة في الباب فالقى اليها السلام · فسارع اليه اولادها الثلاثة وهم حفاة عراة وعيونهم تحدق في السلة فاعطى كلاً منهم برتقالة فراحوا يصفقون ويرقصون ·

— وهل عندكِ غيرهم ·

— ولد آخر

— وكم عمرك

— ثلاثة وعشرون ·

— وهل تأذنين لي بالدخول ·

— تفضل تفضل ·

فدخل الغريب الى غرفة صغيرة مظلمة مفروشة بحصير واحد وليس فيها من المواعين غير طنجرة وجرة وابريق ··

— وانت وزوجك واولادك تقيمون في هذه الغرفة

— ونشكر الله دائماً · حالتنا احسن من حالة جيراننا · هم عشرة ومنهم شاب مزوج يقيم وامرأته وابنه مع والديه واخوته في بيت مثل بيتنا هذا

فودعها الغريب وراح يجتاز في جادات المدينة الضيقة المظلمة الموحلة المنتنة التي تكاد البيوت الى جنبيها تصطدم وتقع بعضها على بعض فطرقت اذنه رنات العود واصوات المغنين فقال في نفسه — وهم مع ذلك فرحون جذلون · سبحانك اللهم ·

ولم يكن يصل الى منعطف الجادة حتى شاهد في الشارع جماعة بينهم عوّاد وضارب قانون وناقر دف واثنان يحملان طبقاً عليه انواع الحلوى · وهم يعزفون على آلات الطرب ويغنون · فاستطلع احد التجار خبرهم · فقال له — وهل انت من باريس ؟ ألا تعرف الزفة · عرس يا شيخ العرب عرس · وهذه هدية العريس الى العروس · والليلة يجيئونه بها ·

فضحك الغريب ضحكة اليائس وراح يردد في نفسه قائلاً —

يتزوجون ويتكاثرون ويعيشون على الحسنات · ويقيمون في الاقذار ويشربون مياه بواليعهم · وعندما يبعث الله اليهم باعثاً مطهراً كالطاعون

او الوباء يجيء هؤلاء المحسنون من الافرنج · والادعاء في احسانهم اشد وباء من الطاعون فيحاولون مقاومة العناية الالهية · يبنون الصروح والمستشفيات ليعيش فيها افراد منهم لا رزق لهم في بلادهم فيستثمرون بؤس العباد واقذار البلاد ويعترضون صنع الطبيعة فيحاولون حفظ ما يريد الله استئصاله · وكم مرة جاء الوباء يريح طبريا من شقائها وويلاتها فناهضه هؤلاء الافرنج وردوه خائباً ·

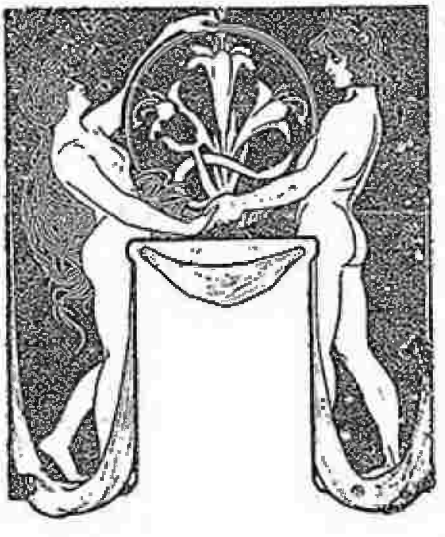

صور فظاهية

عيد الميلاد في أيام الحرب (صورة المانية)

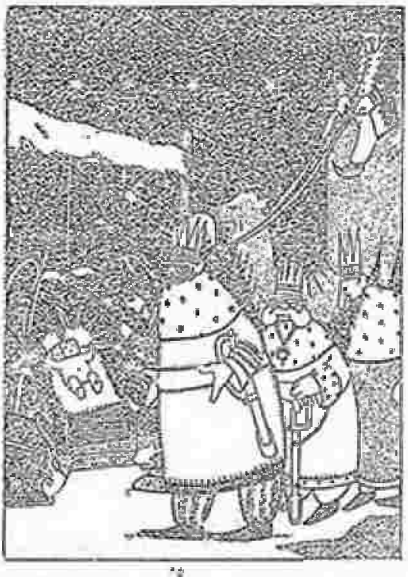

قدوم المجوس (صورة اسبانية)

الامبراطور ولهلم ـ ما اقوى هذا الطفل يصلح لتجنيد سنة ١٩٣٧

« لانه ولد لنا ولد واعطي لنا ابن ... يدعي اسمه رئيس السلام » (معيا)

المصور سيزر في حيفا ... ن